السياسة في الشرق والغرب

دول الشرق:

ما نزع نازع أيام الأمويين إلى دعوى الخلافة أو الملك إلا ضرب ضربة قاسية ردته أدراجه، فكانت رقعة ممالكهم مصونة وتزيد اتساعًا على الزمن، وقلما قام قائم على العباسيين إلا وتم له ما أراد من اقتطاع جانب من الملك، وكانت دولة العباسيين أبدًا سائرة إلى الاضمحلال منذ القرن الثالث.

وقد يحتال النازع إلى اقتطاع جزء من الملك العباسي، لأخذ تولية من الخليفة بالبلاد التي طمع فيها، وربما كتب له الخليفة من تلقاء نفسه عهدًا يربطه به ربطًا صوريًا، قانعا منه بهدية سنوية أو بإتاوة يجبي الخارج من كورة صغيرة من الكور التي استصفاها أكثر منها. وعلى هذا كان العباسيون أيام ضعفهم يرضون من المتغلب بالمحافظة على الظواهر، ويعدونها طاعة لمن يبعث لهم هدية ويخطب باسمهم ويجبي الخراج لنفسه، وكان الاعتقاد السائد يومئذ أن الخارج على الخلافة إذا لم يبايعه الخليفة لا يجوز أن يطلق عليه لفظ سلطان «وقد [١] أفتى بعض الأئمة أن من أقام نفسه سلطانًا قهرًا بالسيف من غير مبايعة من الخليفة يكون خارجيًا، ولا يجوز توليته النواب والقضاة، وإن فعل شيئًا من ذلك كان جميع حكمه باطلًا، وعقد الأنكحة باطلا.»

وكان العباسيون يحرصون بالطبع على هذه القاعدة؛ لأن بها بقاء القليل من سلطانهم.

تُعد حكومة عمان من أول الحكومات التي حاولت الانسلاخ عن العباسيين، وكان أهلها من الخوارج في القرن الثاني، ولإمامهم[٢] وزراء وأرباب دولة ولهم خليفة، ثم دعوا أمراءهم بالملوك، ويقول البلاذري[٣] إنه كان للخوارج سلطان في عمان منذ عهد

---

(١) زبدة كشف الممالك للظاهري.

(٢) تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان للسالمي.

(٣) فتوح البلدان للبلاذري.

الرشيد،: وإن عامله عيسى بن جعفر حارب الشراة[١] فقتلوه، لما خرج إليها بأهل البصرة، وجعلوا يفجرون بالنساء ويظهرون المعازف ويسلبون الناس، فامتنع الخوارج على الخليفة فلم يعطوه طاعة دولتهم، وولوا أمرهم رجلًا منهم، وكانوا يسمون سلطان العباسيين سلطان الجور، وظلت عمان مستقلة بأهلها حتى فتحها المعتضد العباسي، وأقام بها الخطبة له، وانحاز الشراة إلى ناحية لهم تعرف بنزوة وكان فيها إمامهم وبقية ما لهم وجماعتهم[٢] من ذاك العهد.

روى المقدسي[٣] أن ولايات بلاد العرب كانت في القرن الرابع متقطعة، أما الحجاز فهو أبدًا لصاحب مصر لأجل الميرة، واليمن لآل زياد، ولابن طرف عثر، وعلى صنعاء أمير، غير أن ابن زياد يحمل إليه أموالا ليخطب له، وربما أخرجت عدن من أيديهم، وآل قحطان في الجبال، وهم أقدم ملوك اليمن، والعلوية على صعدة يخطبون لآل زياد وهم أعدل الناس، وعمان للديلم، وهجر للقرامطة، وعلى الأحقاف أمير منهم.

أول من استقل بملك مصر أحمد بن طولون وأولاده، ساعده على استقلاله جيش كان جنده بأمر الخليفة لقتال أحد الخوارج بالشام، فلما استؤصلت الفتنة، وأمنت الغائلة، لم يسرح الجيش، فكان به استيلاؤه على مصر والشام وما وراءهما، وأطاع الناس ابن طولون؛ لأنه كان أعدل من كثير من الخلفاء في عهده، يعمر بلاده ويتفقد رعاياه «وكان مع[٤] ذلك طائش السيف. قال القضاعي: يقال إنه أحصى من قتله ابن طولون صبرا أو مات في حبسه، فكان عددهم ثمانية عشر ألفًا وخلف عشرة آلاف ألف دينار.»

---

(١) الشراة لقب من ألقاب الخوارج، ويقال لهم الحرورية والمحكمة، قال الأشعري: والسبب الذي سموا له خوارج خروجهم على علي بن أبي طالب، والذي سموا له المحكمة إنكارهم المحكمين وقولهم «لا حكم إلا الله»، والذي سموا له حرورية نزولهم بحروراء في أول أمرهم، والذي سموا له شراة قولهم شرينا أنفسنا في طاعة الله؛ أي بعناها بالجنة.

(٢) مسالك الممالك للاصطخري، والمسالك والممالك لابن حوقل.

(٣) أحسن التقاسيم للمقدسي.

(٤) الدول المنقطعة للأزدي (مخطوط).

وعد استيلاء ابن طولون على الأمر في مصر خروجا على الخلافة العباسية، وإن كان يخطب لها بادئ بدء، ويبعث إليها ما تيسر من الخراج، ولم يتأت الخلاص من دولته إلا لما قوي العباسيون سنة ٢٩٢هـ فقتلوا جميع آل طولون. وخلفتهم الدولة الإخشيدية، وهي كالدولة الطولونية، دولة أعجمية، ولم يطل أمرها كثيرا حتى حكم مصر عبد زنجي اسمه كافور، إلى أن سقطت في أيدي الفاطميين.

وكثرت الدول في المشرق، وكلها خرجت عن طاعة الدولة العباسية بالفعل، كدولة الحسين بن زيد العلوي بطبرستان (٢٤٠هـ)، ومن الدول ما أبقى للعباسيين السكة والخطبة والطاعة الظاهرة كدولة بين زياد في اليمن، وكان مؤسسها محمد بن زياد عالما من عمال المأمون أرسله للقضاء على الأعراب فأطفأ نائرتهم، واستقرت قدمه وقدم أعقابه في ذاك القطر إلى سنة ٤٠٧هـ، فالزياديون استولوا على اليمن أجمع، ودخلت في طاعتهم حضرموت والشحر وديار كندة، وصار ابن زياد في مرتبة التبابعة، وكان في صنعاء بنو جعفر من حمير بقية الملوك التبابعة مستبدين بها، مقيمين بالدعوة العباسية، ولما بلغ عاملها أبا الجيش إسحاق بن إبراهيم قتل المتوكل وخلع المستعين، واستبداد الموالي على الخلفاء، ركب بالمظلة شأن سلاطين العرب المستبدين، وفي أيامه خرج في اليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسي إبراهيم بن طباطبا، بدعوة الزيدية وقد جاء بها من السند، وكان جده القاسم قد فر إليها بعد خروج أخيه محمد مع أبي السرايا فلحق القاسم بالسند وأعقب بها الحسين، ثم ابنه يحيى باليمن سنة ٢٨٨هـ، ونزل صعدة، وكان شيعته يسمونه بالإمام، ولقب يحيى هذا بالهادي إلى الحق، والزيدية ما زالوا إلى اليوم أصحاب اليمن على كثرة ما تعاورها من الدول، وكانوا إذا قوي أعداؤهم عليهم اعتصموا في معاقلهم وجبالهم، فإذا نفس خناقهم امتد سلطانهم إلى السهول والساحل، ويلقب سلطانهم بأمير المؤمنين وبالإمام. ومن غريب ما وقع في هذا القطر أن ملوك زبيد كانوا يخطبون للعباسيين، والصليحيين يخطبون للعبديين إلى أواخر المائة الخامسة، وبقي أمر اليمن في تقلقل، الجبال لرجل والسهول لآخر، وعدن لغيرهما، حتى جاء عبد النبي بن مهدي الخارجي من زبيد واستولى على اليمن، وبها يومئذ خمس وعشرون دولة، اكتسحها كلها، وأظهر الصليحيون الدعوة العبيدية أو

الفاطمية وملكوا اليمن كله، ونزل الصليحي مؤسس دولتهم صنعاء وأسكن عنده ملوك اليمن الذين غلب عليهم، وهزم بين مطرف ملوك عثر وتهامة، ثم استولى بنو أبي البركات على بني المظفر، ودخل شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين سنة ٥٦٦هـ، واستولى على الدولة التي كانت باليمن، ونزل زبيد واتخذها كرسيا ململكته، ثم انتقل إلى تعز، وكانت عاصمة الصليحي حصن ذي جبلة منذ سنة ٤٥٨هـ، ونزلها وبقيت كرسيا لملكه وبنيه ومواليهم بني رسول، وكان السبب في فتح صلاح الدين اليمن أنه كان[١] «أهله خائفين من نور الدين فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر، بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه، فإن هزمهم التجئوا إلى تلك المملكة.»

والدولة الرسولية هي دولة عمر بن علي بن رسول، وكان والده علي بن رسول استادار الملك المسعود بن السلطان الملك الكامل، استقر أولا نائبا لبني أيوب فما إن هلك حتى استولى ابنه عمر على ما كان عليه أبوه، ولقب بالملك المنصور، ودام الملك في بنيه مدة طويلة، على اختلاف كان بين أهل هذا البيت على الملك، واليمن بطبيعة أرضها مستعدة لقيام الدول وإذا قامت فيها يدوم أمرها، فقد سمت للخلافة نفس أحمد بن الزبير الغساني - المعروف بالرشيد[٢] الأسواني من أهل صعيد مصر، وكان قاضي اليمن للفاطميين ويعد من كبار العلماء - فأجابه قوم إليها ونقشت له السكة (٥٦٣هـ)، وأعظم من هذا أن معز الدين بن سيف الإسلام طغتكين ملك اليمن (٥٩٤هـ) ادعى الألوهية نصف نهار، ثم رجع عن ذلك وادعى الخلافة ودعا لنفسه وقطع الدعاء من الخطبة لبني العباس، وأكره من كان في مملكته من أهل الذمة على الإسلام.

وكانت الحجاز تتقلب في أيدي بيوت يدعون الشرف ويدينون بالطاعة لصاحب القوة من العباسيين أو الفاطميين، ومنهم[٣] بنو الحسن، ومنهم محمد بن سليمان خلع طاعة العباسيين وخطب لنفسه بالإمامة في سنة إحدى وثلاثمائة، ثم اعترضه القرامطة فخطبوا لعبيد الله المهدي صاحب إفريقية وقلعوا الحجر الأسود وباب الكعبة

(١) تاريخ أبي الفداء.

(٢) طبقات النحويين للسيوطي.

(٣) صبح الأعشى للقلقشندي.

وحملوهما إلى الأحساء، ثم صولحوا وأعيدت خطبة العباسيين، ثم خطب لبني بويه مع الخليفة العباسي، ثم أعيدت الخطبة للفاطميين متقطعة، فكان الأمراء إذا قطعوا خطبتهم قطعوا عن الحرمين الميرة فيعودون إلى الخطبة باسمهم، ثم خطب للسلجوقيين وتولى الإمارة الحجازية بنو قتادة وغيرهم، والحالة لا تسر صديقا في أكثر الأدوار.

وقامت الدولة السامانية في بخارى وما إليها من سنة ٢٦١هـ إلى سنة ٣٨٩هـ، واشتهرت في معظم أدوارها بالعدل وحسن السياسة. ثم خلفتها دولة محمود بن سبكتكين في خراسان وخوارزم من سنة ٣٦٦هـ إلى أن انقرضت سنة ٥٧٨هـ، واتخذت غزنة عاصمتها، وكانت من الدول التي لا بأس بسياستها تتصل مع العباسيين بالسكة والخطبة، ويعترف خليفة بني العباس بسلطانها، وكان في المنصورة من بلاد السند في القرن الرابع سلطان من قريش يخطب للعباسي، والملتان قرب غزنة يخطبون للفاطمي، ولا يحلون ولا يعقدون إلا بأمره، وأبدًا رسلهم وهداياهم كانت تذهب إلى مصر، وكان الخليفة من الخوارج يسكن بناحية وردان مما يلي سجستان ومكران، وهي[1] بلدهم ودارهم في القرن الرابع، ومع أن أهلها من المنحرفين عن علي بن أبي طالب «ويظهرون مذهبهم ولا يتحاشون منه ويفتخرون به عند المعاملة، وليس في الدنيا سوقة أصح منهم معاملة ولا أقل منهم مخاتلة.»

ومع أن عليا لُعن على منابر الشرق والغرب لم يلعن على منبرها إلا مرة واحدة، ومن الغريب أنهم امتنعوا على بني أمية حتى زادوا في عهدهم وألا يلعن على منبرهم أحد.

ومن أهم الدول التي استولت على القسم المهم من بلاد الخلافة العباسية دولة بني بويه من الديلم، وكانوا شيعة أراد مؤسس دولتهم أن يتبسط في نشر التشيع في بغداد والولايات فخوفوه العاقبة فأحجم، وقد امتد حكم البويهيين من بلاد فارس إلى العراق من سنة ٣٢١ إلى ٤٤٨هـ، وكان فيهم رجال من أجل الملوك علما وسياسة. وجاء بعدهم السلجوقيون الأتراك وهم من أهل السنة، فاستولوا بعد بني بويه على خراسان،

(١) معجم البلدان لياقوت.

وامتد حكمهم إلى العراق والشام من سنة ٤٣١هـ، وخطب لملكهم العظيم ملكشاه (٤٨٥هـ) من حدود الصين إلى آخر الشام، ومن أقاصي بلاد الإسلام في الشمال إلى آخر بلاد اليمن، وخطب لسنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بالعراقين وأذربيجان وأران وإرمينية والشام والموصل وديار بكر وربيعة والحرمين، ومؤسس هذه الدولة ألب أرسلان أسر أرمانيوس طاغية الروم (٤٦٣هـ)، وكان في مائتي ألف من الروم والفرنج والعرب المتنصرة والروس والكرج في أرجاء خلاط بإرمينية ففدى نفسه بألف ألف وخمسمائة ألف دينار، وأن يطلق كل أسير في مملكته، وهادنه ألب أرسلان خمسين سنة، وكان ملكشاه يأخذ إتاوة من ملك الروم في القسطنطينية، وامتد حكم بيته إلى أرض الروم - أي آسيا الصغرى - وكانت دولتهم عادلة تنفذ شرع الإسلام.

والسلجوقيون هم الذين تلقوا بصدورهم الصدمة الأولى للحروب الصليبية، وكانت الشام والجزيرة وآسيا الصغرى موزعة بين أمراء منهم، فأخذوا يطاولون الأعداء ويصاولونهم، حتى فتح الأتابك زنكي بعض بلاد الشام، وكان من سياسته أن «يراسل فرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ويعلمهم أنه إن ملك بالشام حصنًا وأحدًا، أخذ البلاد التي بأيديهم منهم، وكان يراسل ملك الروم ويتهدده ويوهمه أن الفرنج معه، فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه.»

وجاء ابنه محمود بن زنكي فجمع شمل البلاد الشامية والجزرية، ثم ضم إليها مصر، وكان الملوك[1] قبله جاهلية حتى جاءت دولته فوقف عند أوامر الشرع ونواهيه، وكانت سيرته أشرف سيرة، وسياسته أنجع سياسة. ثم قامت دولة صلاح الدين يوسف بن أيوب تتولى من دفع عادية الصليبيين ما تولته الدولة النورية ودولة الترك السلجوقيين من قبل، ثم دولة الترك المماليك من بعد، وقد بنت الدولة الصلاحية على أساس الدولة النورية وعملت برجالها.

كان من المعقول أن تعاون بلاد المسلمين كلها من أقصى آسيا إلى أقصى إفريقية لدفع صائل الصليبيين عن بلاد المسلمين، لكن الأمراء والملوك لم يكونوا يهتمون بغير

---

(١) كتاب الروضتين لأبي شامة.

شهواتهم وراحتهم في ملكهم، فقدر لهذه الدول الصغيرة برقعة ممالكها الكبيرة بعقول القائمين بسياستها، أن تتولى سياسة الإسلام الخارجية، وتقضي على خطط واسعة وضعها البابا في رومية، وقد جند جيوشا جرارة من كل شعوب أوروبا،[1] ما خلا الإسبانيين والبرتقاليين لشغلهم بحرب المسلمين في الأندلس، وما خلا الروس؛ لأنهم ليسوا على مذهب البابا فلا سلطان له عليهم.

ولعل ملوك الإسلام لم يكونوا يومئذ يقدرون مدى مضار الحروب الصليبية على الإسلام إذا ظفر المهاجمون من الغربيين. ولقد كُتب التبريز في السياسة والحرب للدولة السلجوقية، وفي مقدمتها دولة نور الدين، ثم دولة بني أيوب، صلاح الدين والعادل والكامل والظاهر والأشرف وأمثالهم، فقامت كل واحدة خير قيام بواجب دولة كبيرة على قلة النصير وضعف المادة.

وبطلت مدة قرنين كاملين غزوات المسلمين على الروم وبالعكس، وانحصرت جهود مصر والشام والجزيرة وإرمينية وآسيا الصغرى في معالجة مشكلة دولية كانت أعظم المشاكل الخارجية التي أصيب بها الإسلام، منذ انبعث من جزيرة العرب، وكان ملوك الصليبيين يرهبون ملوك المسلمين، ويدهشون لأعمالهم في السلم والحرب؛ ذلك لأن الملوك القائمين برد العدو في تلك الأعصار كان رأيهم في الملك يخالف رأي الملوك الآخرين ممن لا شأن لهم إلا أن يقبعوا في أرضهم فقط.

هذه جملة حال الممالك التي نبعت من أرض المملكة العباسية، وبذلك تضاءلت خلافتهم في القاصية والدانية، فلم يبق أمام خلفائها إلا خلع الخلع على الملوك المحدثين، واختراع الألقاب لهم يلقبونهم بها، لقبوا محمود بن سبكتكين الغزنوي

---

(١) من كتاب للقاضي الفاضل عن لسان صلاح الدين إلى ديوان الخليفة ببغداد وصف أجناس الصليبيين جاء فيه: «واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والأندلسية الأعجمية من لا يحصر معدوده، ويتصور في الدنيا وجوده، فما أحقهم بقول أبي الطيب:

تجمع فيه كل لسن وأمة فما يفهم الحداث إلا التراجم

حتى إنه إذا أُسر الأسير، واستأمن من المستأمن، احتيج في فهم لغته إلى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر، ويقول ثان ما يقول أول، وثالث ما يقول ثان.»

بيمين الدولة وأمين الملة،[١] ولقب المقتدي ملك المرابطين في الغرب الأقصى بأمير المسلمين، وأخذ نور الدين عمر مؤسس الدولة الرسولية في اليمن لقب سلطان، ومثله كان من ملوك دهلي، وكانوا ينقشون على الدنانير أسماء العباسيين، وظلوا ينقشونها بعد ثلاثين سنة من مهلك المستعصم آخر خلفاء بني العباس في بغداد.[٢]

كان عمل هذه الدول داخليًا محليًا، وقل أن كانت تتصل بدول غير دول الإسلام، اللهم إلا إذا استثنينا الدولة الحمدانية في الشام والجزيرة، وكانت تحتك بالروم على الدوام، والدولتين النورية والصلاحية ومن بعدها وقبلها من الدول التي خفق لها علم على أرجاء البلاد المتاخمة كالسلجوقيين؛ فإن علاقات هذه الدول بالإفرنج كانت وافرة، وكل دولة تقف موقف الخائف المترقب من جارتها.

كانت علائق الدول الإسلامية بالدول النصرانية موفقة إذا كان القائم بالأمر رجلًا في الجملة، يعمل لملكه لا لشيء آخر من ضروب هواه، فقد رأينا نور الدين وصلاح الدين ومن جاء بعدهما يأسرون ملوكا وأمراء من الصليبيين، ويفتدونهم بأموال عظيمة يستعينون بها على الجهاد أو على أمر شريف آخر من أنواع القربات، أسر الملك الأوحد (٦٠٧هـ) ابن أخي صلاح الدين ملك الكرج ففدى نفسه بمائة ألف دينار، واشترط عليه أن يطلق أسرى المسلمين، وأن يلزم الصلح ثلاثين سنة، وأن يزوجه ابنته بشرط ألا تفارق دينها.

قلنا: إن الدولة الحمدانية كانت من جملة الدول التي تم لها احتكاك شديد بالروم - وكانت هذه الدولة على صغرها بحيث لم تكن تملك غير القسم الشمالي من بلاد الشام والثغور الشامية والجزرية وديار بكر وديار مضر - من الدول التي يحسب الغريب حسابها ويدين رأسها سيف الدولة الشيعي (٣٥٦هـ) بالطاعة للعباسيين، غزا الروم أربعين غزوة له وعليه، وجاء الروم في أيامه ففتحوا بلادًا من بلاده وخربوا عامرها، وكان أخلافه أضعف منه نفسًا فهادنوا الروم، وأدوا إليهم الجزية مدة، ومنهم من

---

(١) تاريخ العتبي.

(٢) معلمة الإسلام: الخلافة.

استنجد بهم وذل أمامهم ذلا ليس بعده ذل، ودام هذا التخبط حتى بيض السلجوقيون وجه الإسلام بأعمالهم الحربية، وقد دامت دولة سيف الدولة أو الدولة الحمدانية سبعين سنة.

على هذا المنهج كانت تسير الدولة العباسية، وهكذا حال الدول التي اقتطعت من الجسم العباسي، والعباسيون راضون بهذا الذل، حتى جاء هولاكو التتري واستولى على بغداد وقتل الخليفة، فانقرضت الخلافة العباسية، وأقامت الدنيا ثلاث سنين ونصف سنة بلا خليفة.(١)

وفي سنة ٦٥٩هـ حضر إلى مصر أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بالله العباسي، وهو عم الخليفة وأخو المستنصر، وكان معتقلا ثم أُطلق، فخرج الملك الظاهر بيبرس البندقداري للقائه، وخرج الوزراء العلماء، واليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم، وأريد العباسي على إثبات نسبه فأثبته، وبايعه الظاهر بيبرس وخطب له على المنابر، وضرب اسمه على السكة، وكتبت بيعته إلى الآفاق.

وبعد أيام ركب الخليفة والسلطان والقاضي والوزير والأمراء إلى خيمة عظيمة، فألبس الخليفة السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء، وجعل له في عنقه طوق من ذهب، وقيد من ذهب في رجليه، وفوض الأمور إليه «في البلاد الإسلامية وما سيفتحه من بلاد الكفر والبلاد الشامية والديار بكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات.» فأحيا بيبرس الخلافة العباسية بعد موتها، على ألا يكون للخليفة عمل غير المراسم، لا ينصب ولا يعزل، ولا يعقد الصلح ولا يعلن الحرب، ولا يجبي مالا، ولا يصرفه في وجوهه، ولا يعمل شيئا يدل على سلطانه.

وكأن الظاهر بيبرس بإرجاعه الخلافة العباسية حاول أن يصلح ما ارتكبه من القضاء على آخر فرد من أبناء صلاح الدين. وظلت الشام ومصر والحرمان بعد هذا العهد في أيدي المماليك يتعاورون الحكم عليها، زهاء قرنين ونصف قرن. وفي أيام محمد بن قلاوون امتد حكم المماليك من مصر والشام إلى إفريقية وخُطب لهم في

---

(١) حسن المحاضرة للسيوطي، وتاريخ مصر لابن إياس.

تونس وطرابلس وبرقة ودام حكمهم حتى جاءت الدولة العثمانية، فاستولت على الشام ومصر وبلاد العرب (٩٢٢-٩٢٣هـ).

ودولة المماليك البرجية والبحرية، كالدولة الفاطمية قبلها، كان في ملوكها الصالح والطالح، وربما كان الصالح فيها أكثر من أمثالهم في دولة العبيديين الفاطمية، وقد عُمرت البلاد في أيامهم عمرانًا يستغرب تحقيق مثله على خلل بين يطرأ عليها في الفترات، بتبدل الولاة ونشوب الفتن الأهلية من أجل الملك، لكن نوابغ من ملوكهم كانوا يتولون الأمر أحيانا فيسدون كل خلل، ويأخذون بأيدي أهل البلاد إلى الترقي، ويلقون الهيبة في صدور المجاورين من الشرقيين والغربيين من الإفرنج.

دول الغرب:

من أعظم ما فت في عضد الخلافة العباسية قيام دولة الأمويين في الأندلس، ثم إعلانهم الخلافة، وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموي لما انتهى به المطاف إلى شمالي إفريقية، وأعانه اليمانيون ففتح الأندلس، وأنشأ بعد ذهاب ملك آبائه في الشرق (١٣٩ه) ملكًا ضخمًا جعل قرطبة عاصمته، أقام دون السنة بعد فتح قرطبة[1] يدعو لأبي جعفر المنصور إلى أن أفرد نفسه بالدعاء، ولم يتعد التلقب بالأمير، وكذلك سلك الأمراء من ولده سنته في ذلك، وتسمى عبد الرحمن بن محمد الناصر بالخلافة بعد سبع وعشرين سنة من سلطانه بالخليفة، ودعي بأمير المؤمنين، وذلك لما استفحل أمره، واستبان له ضعف ولد العباس، وانتشار سلطانهم بالمشرق، وكتب إلى العمال كتابًا جاء فيه «وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك؛ إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه، ومتسم بما لا يستحق، وعلمنا أن التمادي في ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه، واسم ثابت أسقطناه.» وعبد الرحمن الثالث هذا هو الذي لم يتردد لسلامة ملكه في قتل ابنه عبد الله لاتهامه بمؤامرة على الملك.

---

(١) نفح الطيب للمقري.

ومما مكن لعبد الرحمن الناصر كونه وضع حدًّا للحروب الأهلية[١] بين العرب والإسبان والبربر، وأمن الحدود، وجعل قوة من أسطوله استولى بها على شمالي إفريقية، وعبد الرحمن الثاني هو الذي أقام أبهة الملك ورتب الرسوم، وكان يشبه الوليد بن عبد الملك في أبهته. قال ابن عذاري: وهو أول من جرى على سنن الخلفاء في الزينة والشكل وترتيب الخدمة، وكسا الخلافة أبهة الجلالة، فشيد القصور وجلب إليها المياه وبنى الرصيف وعمل عليه السقائف، وبنى المساجد الجوامع بالأندلس، وعمل السقاية على الرصيف، وأحدث الطراز، واستنبط عملها، واتخذ السكة بقرطبة وفخم ملكه.

تعاقب على الأندلس منذ فتحت أيام الأمويين عشرون واليًا كانوا أمراءها وولاة الحرب فيها، يلونها من قبل بني أمية في المشرق، أو من قبل من يقيمونه بالقيروان أو بمصر، والفتن فيها قائمة لبعد الأندلس عن مقر الخلافة في دمشق، حتى إذا فتحها عبد الرحمن الداخل فتحا ثانيا، وصفت له ولأولاده من بعده، ساقوا الإمارة، ثم الإمامة أو الخلافة في أبنائهم على الغالب وترسموا خطا أجدادهم في المشرق حتى إن عبد الرحمن الأموي عهد بالإمارة إلى ابنه هشام لما كان يتوسم فيه من الشهامة والاضطلاع بالأمر، وترك ابنه الأكبر سليمان. ومن ملوك الأمويين في الأندلس من عُرفوا بالسياسة والدهاء والتحلي بفضائل كبار الخلفاء من آبائهم في القرن الأول وثلث الثاني.

وما انقرضت دولة الأمويين في الأندلس[٢] إلا لما تواترت الفتن الأهلية وعجزوا عن أن يأخذوا من أعنة جيوشهم المؤلفة من صعاليك مستأجرة، وقدم المنصور أبو عامر رجال البرابرة وزناته في الأندلس، وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك، وسُمي بالحاجب المنصور، وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر، وكتب اسمه في السكة والطراز، وأغفل ديوانه مما سوى ذلك. وكان

---

(١) معلمة الإسلام، عبد الرحمن.

(٢) معلمة الإسلام، الأمويون.

العرب الذين نزلوا الأندلس لأول الفتح من قبائل شتى وفيهم اليمانية والقيسية وفيهم بنو كلاب ومحارب وهوازن وغطفان والأزد وعقيل وقُشير والجُرمش وغيرهم، ومنهم كانت جمهرة الجيش العربي هناك فأبدلوا بعد حين بصقالبة وبربر وغيرهم.

وفي أوائل المائة الخامسة انقرضت خلافة الأمويين في الأندلس، فتقاسم ملوك الطوائف الولايات، وذهب ذاك الوقار الذي يتمتع به في الأغلب من تسلسل فيهم الملك والإمارة كابرا عن كابر، وما انقطع من الملوك الخالفين مع هذا ظهور رجال تحنكوا بالسياسة وإدارة الملك. قال ابن سعيد مؤرخ الأندلس:[1] وكان الضابط فيما يقال في شأن أهل الأندلس في السلطان أنهم إذا وجدوا فارسًا يبرع الفرسان، أو جوادا يبرع الأجواد، تهافتوا في نصرته ونصبوه ملكا من غير تدبر في عاقبة الأمر، وبعد أن يكون الملك في مملكة قد تووثت وتدوولت، يكون في تلك المملكة قائد من قوادها، قد شهرت عنه وقائع في العدو، أو ظهر منه كرم نفس للأجناد ومراعاة، قدموه ملكًا في حصن من الحصون، ورفضوا عيالهم وأولادهم، إن كان لهم ذلك بكرسي الملك، ولم يزالوا في جهاد وإتلاف نفس حتى يظفر صاحبهم بطلبه. قال: وأهل المشرق أصوب رأيا من الأندلسيين في مراعاة نظام الملك، والمحافظة على نصابه، لئلا يدخل الخلل الذي يقضي باختلاف القواعد وفساد التربية وحل الأوضاع.

وذكر صاحب المعجب أن المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن من ملوك الطوائف «كان في غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير، وزر له رجل حائك يُعرف بأحمد بن خالد، وكان هو المدبر لأمره والمدير لدولته، فقل في دولة يديرها حائك.» وتفرق أهل الأندلس فرقا،[2] وتغلب في كل جهة متغلب للسبب الذي علل له ابن سعيد، وتقسموا ألقاب الخلافة، فمنهم من تسمى بالمعتضد، وبعضهم بالمأمون، وآخر بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد والموفق والمتوكل، وفي ذلك يقول ابن رشيق:

---

(١) نفح الطيب للمقري.

(٢) المعجب للمراكشي.

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها كالهر يحكي انتفاخا صولة الأسد

لما ولي علي بن حمود الناصر بالأندلس تسمى بالخلافة (سنة ٤٠٨هـ) وبويع لإدريس بن علي بالخلافة في مالقة (٤٣١هـ)، ولما هلك لم يتسمّ ابنه بالخلافة، ثم بويع للحسن بن يحيى بالخلافة ولقب بالمستنصر، وهكذا صار خليفة لمالقة وسبتة وطنجة، ثم حدث في الأندلس من دعوى الملك شيء لا يكاد يسبق له نظير، وهو أن رجلًا من العامة، لا عصبية له ولا سابقة، ادعى أنه من نسل بني أمية بعد انقراض دولتهم في الأندلس، وخطب له على المنابر عشرين سنة، وهو كاذب في دعواه.

قال ابن حزم:[1] أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها، فإنه ظهر رجل يقال له خلف الحصري بعد عشرين سنة من موت هشام بن عبد الملك المنعوت بالمؤيد، وادعى أنه هشام فبويع وخطب له على جميع منابر الأندلس في أوقات شتى، وسفك الدماء، وتصادمت الجيوش في أمره، وأقام المدعي أنه هشام نيفًا وعشرين سنة، والقاضي محمد بن إسماعيل في رتبة الوزير بين يديه والأمر إليه، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن توفي المدعو هشاما، فاستبد القاضي محمد بالأمر بعده، وكان من أهل العلم والأدب والمعرفة التامة بتدبير الدول، ولم يزل ملكًا مستقلًا إلى أن توفي في سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة. ا.هـ.

ذاك ما تم في الأندلس من تغلب خلف الحصري وقاضيه، تم لهما الملك بالغلبة وبعصبية ملفقة، وليس الملك - كما قال ابن خلدون[2] - لكل عصبية، وإنما الملك على التحقيق لمن يستعبد الرعية ويجبي الأموال، ويبعث البعوث، ويحمي الثغور، ولا تكون فوق يده يد قاهرة، ومن قصرت به عصبيته عن بعضها مثل حماية الثغور، أو جباية الأموال، أو بعث البعوث، فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته، كما وقع لكثير من ملوك البربر في دولة الأغالبة في القيروان، ولملوك العجم صدر الدولة العباسية، ومن قصرت

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان.

(٢) مقدمة ابن خلدون.

عصبيته أيضاعن الاستعلاء على جميع العصبيات، والضرب على سائر الأيدي، وكان فوقه حكم غيره، فهو أيضًا ملك ناقص لم تتم حقيقته، وهؤلاء مثل أمراء النواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة، وكثيرًا ما يوجد هذا في الدولة المتسعة النطاق مثل صنهاجة مع العبيديين، وزناتة مع الأمويين تارة، والعبيديين أخرى، ومثل ملوك العجم في دولة بني العباس.

وقول ابن خلدون لا يكاد يتخلف، ومسألة خلف الحصري وقاضيه من الشواذ، وكان هذا من هزل الدهر في الأندلس، أيام كان أهل كل إقليم يحاولون أن تكون لهم الغلبة بقاض لهم آثروه، أو قائد أحبوه؛ أو دعي عاونوه، ولقد قال ابن حزم: فضيحة لم يقع في الدهر مثلها: أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها، يسمى كل واحد منهم بأمير المؤمنين، ويُخطب لهم في زمن واحد، أحدهم في إشبيلية، والثاني بالجزيرة الخضراء، والثالث بمالقة، والرابع بسبتة، حتى إذا ضاقت الأرض بما رحبت على الأندلسيين جاءهم من بر العدوة يوسف بن تاشفين اللمتوني ملك المرابطين، فكان أول من دعا للخلافة العباسية على منابر الأندلس والمغرب، وتسمى بأمير المسلمين تأدبا مع الخليفة، وانتهى ملكه إلى مدينة أفراغه من ناحية شرق الأندلس، وإلى مدينة أشبونة على البحر المحيط من الغرب، وملك بعدوة المغرب من جزائر بين مزغنان إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى إلى جبال الذهب من بلاد السودان.

واختل ملك بني تاشفين بعد الخمسمائة لإهمال السلطان، واشتغاله بالعبادة،[1] ولاستيلاء النساء على الأمور «فصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ونفوسة مشتملة على كل مفسد وشرير، وقاطع سبيل، وصاحب خمر وماخور.» وانقطعت الدعوة للعباسيين من منابر الأندلس والمغرب بقيام ابن تومرت من المصامدة في بلاد السوس، وفتح الموحدون بقيادة ملكهم عبد المؤمن بن علي الكومي البربري إفريقية سنة ٥٢٨هـ، ثم فتحوا الأندلس، وهو أول من تسمى في المغرب بأمير المؤمنين بعد عصر الأمويين،

(١) المعجب للمراكشي.

ونادى «في البلاد[١] التي ملكها بإخراج النصارى منها، وشرط لمن أسلم منهم بموضعه على أسباب ارتزاقه ما للمسلمين وعليه ما عليهم، ومن بقي على رأي أهل ملته، فإما أن يخرج قبل الأجل الذي أجله، وإما أن يكون بعد الأجل في حكم السلطان مستهلك النفس والمال.»

ومؤسس دولة الموحدين هو ابن تومرت، سمى نفسه المهدي، وادعى أنه هو المهدي المنتظر وكثر أتباعه، ورأى من بعض جموعه قومًا خافهم، فادعى أن الله أعطاه نورا، يعرف به أهل الجنة من أهل النار، وجمع الناس إلى رأس جبل، وجعل يقول لكل من يخافه: هذا من أهل النار، فيلْقى من رأس الشاهق ميتا، وكل من لا يخافه هذا من أهل الجنة، ويجعله عن يمينه، حتى قتل خلقا كثيرا واستقام أمره وأمن على نفسه، وقيل: إن عدّة الذين قتلهم سبعون ألفًا، وسمى عامة أصحابه الداخلين في طاعته «الموحدين»، ودامت هذه الدولة ثمانين سنة (٤٦٢–٥٤٢هـ)، وكان ملوك الموحدين كملوك المرابطين يخاطبون بأمير المؤمنين، ويحرصون على هذه التسمية، حتى إن صلاح الدين يوسف صاحب مصر والشام لما أرسل إلى أبي يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من[٢] الموحدين وخاطبه بسيدنا، نقم عليه المنصور لتجافيه عن خطابه بأمير المؤمنين، وأسرها في نفسه، ولم يجبه إلى حاجته، وكانت حاجته طلب مدد أساطيله؛ لتتجول في البحر بين أساطيل الإفرنج، وتحول دون مرامهم بإمداد جيوش النصرانية في ثغور الشام.

دامت دولة الموحدين في الأندلس إلى أن قام بنو الأحمر، واستولوا على غرناطة، وبالقضاء على دولتهم انقضى ملك المسلمين من تلك الديار، أواخر القرن التاسع من الهجرة. وأول من استولى من بني الأحمر أو ملوك بني نصر أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف الخزرجي الأنصاري،[٣] تظاهر لأول أمره بطاعة الملوك بالعدوة

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة.

(٢) مقدمة ابن خلدون.

(٣) اللمحة البدرية في الدولة النصرية لابن الخطيب.

وإفريقية فخطب لهم زمنًا يسيرًا، ودعا للمستنصر العباسي ببغداد، حاذيًا حذو سميه ابن هود، للهجة العامة في وقته بتقلد تلك الدعوة إلى أن نزع عن ذلك كله.

وكان في تلمسان وإفريقية وفاس ملوك مختلفون في تلك الحقة، واعتاد المغرب منذ القرن الثاني أن يخلع الطاعة فيه للخلافة العباسية، قائد من القواد ويؤسس ملكا، وأول ما كان من ذلك دولة الخوارج الأباضية في أيام المنصور العباسي، وتغلبها على مملكة إفريقية، وكان يسلم بالخلافة على ميمون بن عبد الرحمن بن رستم من فرس العراق[١] ورأس الصفرية والواصلية، وتعاقبت مملكة تاهرت بنو ميمون وإخوته، ثم بعث إليهم عبد الله بن إبراهيم بن الأغلب صاحب إفريقية أخاه الأغلب، فقتل من الرسمية عددا كثيرا، وملك بنو رستم تاهرت مائة وثلاثين سنة، ودامت دولتهم إلى سنة ٢٠٢هـ، وامتدت دولة إدريس بن عبد الله من السوس الأقصى إلى تلمسان، وكان من جملة قواعد مملكته فاس، وانقرضت سنة ٣٠٧هـ، وكانت قامت سنة ١٧٢هـ.

وفي النصف الأول من القرن الثالث عندما كانت تاهرت، وما إليها في أيدي ميمون الرسمي[٢] كان وادي الرمل ووادي الزيتون وقصر الأسود بن الهيثم إلى طرابلس وما وراء ذلك في يد ابن صغير البربري المصمودي، وكانت إيزرج مما يلي تاهرت في يدي إبراهيم بن محمد البربري المعتزلي، وطنجة وفاس في أيدي ولد إدريس بن إدريس بن إدريس، ولا يسلم عليه بالخلافة، وإنما يقال: «السلام عليك يا ابن رسول الله»، وكان يسلم على الأموي صاحب الأندلس «السلام عليك يا ابن الخلائف»؛ وذلك إنهم لا يرون اسم الخلافة إلا لمن ملك الحرمين.

وكان بنو الأغلب عمالا للعباسيين في إفريقية فمنحهم الرشيد شبه استقلال في داخليتهم، فأنشأوا لهم دولة في تلك الأصقاع زالت بغلطة سياسية ارتكبها إبراهيم الثاني من بني الأغلب؛ ذلك لإبعاده كثيرًا من الجيوش العربية الداخلة في إفريقية عند

---

(١) معجم البلدان لياقوت، ويقول ابن خرداذبة: إنه ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الواحد بن رستم.

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبة.

افتتاحها ومعظمهم[١] من قيس وتميم وفهر وجرير، فتطاولت رقاب كتامة من البربر فسقطت الدولة العربية، ودامت دولة الأغالبة مائة واثنتي عشرة سنة كما دامت دولة بني مدرار في سلجماسة مائتين وستين سنة.

وأعاد إدريس من ولد محمد بن القاسم الإمامة إلى بيته، بعد أن كانت فيه مدة ثم تراجعت وذلك بعد الأربعين وثلاثمائة. وقامت عدة دول في شمالي إفريقية لم يطل أمرها كثيرا كما قام في الأندلس، مثل دولة بني عبد الواد ويعرفون ببني زياد، قامت بالمغرب الأوسط؛ أي في بلاد الجزائر أو جزائر بني مزغنان، وذلك عند ضعف دولة الموحدين، وجعلوا قاعدتها تلمسان ودامت من سنة ٦٣٣ إلى ٩٢٣هـ، ومثل دولة بني مرين في المغرب الأقصى من سنة ٦١٣–٨٢٣هـ، وهم من البربر كزناتة وبني عبد الواد، وقد تلقب بعض ملوكهم بأمير المؤمنين، وخلفتهم الدولة الوطاسية في المغرب، ولما ذاع صيت المستنصر[٢] أحد أمراء الحفصيين بين أبي حفص في الآفاق أرسل إليه أمير مكة وأهل الأندلس بيعتهم بالخلافة سنة ٦٥٧هـ، ولقب من يومئذ بأمير المؤمنين، وكان ملك الحفصيين في تونس يدعي الخلافة ويلقب بألقاب الخلفاء، ويخاطب بأمير المؤمنين، والحفصيون نسبة إلى أبي حفص أحد العشرة أصحاب ابن تومرت، وهم بقايا الموحدين.

وأهم الدول التي ظهرت في المغرب وانتشر سلطانها في المشرق وأغصت الدولة العباسية بريقها الدولة الفاطمية، وقد هيأ لها العباسيون دعاية ممتدة النطاق للطعن في نسب مؤسسها، ومن المؤرخين كابن خلدون والمقريزي من صححه، ومنهم وهم الأكثر زيفوه، والغالب أن أصل ملوكهم من شيعة الإسماعيلية في سَلْمَية في الشام هبوا لتأسيس ملك، فما زالوا يتنقلون في ربوع إفريقية حتى قام أبو عبيد الله المهدي سنة ٢٩٧هـ، وتسمى بأمير المؤمنين وقتل أبا عبد الله الشيعي داعية ملكه، على نحو ما فعل المنصور العباسي فقتل أبا مسلم الخراساني مؤسس دولته.

---

(١) تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب.

(٢) تاريخ تونس لحسن حسني عبد الوهاب.

وسُميت هذه الدولة بالفاطمية نسبة لفاطمة بنت الرسول، ومن المؤرخين من يطلق عليها اسم العبيديين نسبة لأبي عبيد الله مؤسسها، وادعت الخلافة، ولقب ملوكها بأمراء المؤمنين واستولوا على القسم الأعظم من شمالي إفريقية. وبنى عبيد الله أول ملوكهم في إفريقية «القصور ورتب السياسة وأحكم التدبير»، وأمر أن يُدعى له في المنابر وخطب الأعياد بمرسوم، يقال فيه بعد الصلاة على النبي وعلى أمير المؤمنين علي وفاطمة الزهراء والحسن والحسين، وعلى الأئمة من أولادهم: «اللهم صل على عبدك ووليك وخليفتك القائم بأمر عبادك في بلادك أبي محمد عبيد الله الإمام المهدي بالله أمير المؤمنين، كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين، الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون، اللهم وكما اصطفيته لولايتك واخترته لخلافتك، وجعلته لدينك عصمة وعمادًا، ولبريتك موئلًا وملاذًا، فانصره على أعدائه المارقين، وافتح له مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته، وأيده على العصاة الضالين، إنك أنت الحق المبين.» وكانت أوامر المعز «تُنفذ من أقصى الشام والحجاز إلى السوس الأقصى.»

ويقول ابن الخطيب:[1]

إن المعز لدين الله[2] كان أعظم ملوكهم خطرًا، وكان بعيد الصيت، عظيم الجبروت، وقورا كثير التأني، ذهب بنفسه كل مذهب، حتى زعموا أنه أمر المؤذن أن يقول: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن معدًا رسول الله، وأن مما يشهد لذلك قول شاعره أبي القاسم محمد بن هانئ الأندلسي في القصيدة الشهرية التي أولها:

أتظن راحا في الشمال شمولا أتظنها سكرى تجر ذيولا

ويقول من أبيات غير متوالية:

أمديرها من حيث دار لطالما زاحمت تحت لوائه جبريلا

أورثته البرهان والتبيان والـ ـفرقان والتوراة والإنجيلا

---

(١) أعمال الأعلام للسان الدين بن الخطيب.

(٢) يقول ابن حزم في طوق الحمامة: إن منصور بن نزار الذي ولي الملك بعد أبيه نزار بن معد صاحب مصر ادعى الإلوهية.

وعلمت من مكنون علم الله ما ... لم يؤت في الملكوت ميكائيلا
لو كنت آونة مبشر أمة[1] ... نشرت لمبعثك القرون الأولى
لو كنت نُوحا منذرا في قومه ... ما زادهم بدعائه تضليلا
لله فيك خفية لو أعلمت ... أحيا بذكرك قاتل مقتولا
لو كان آتي الخلق ما أوتيته ... لم يخلق التشبيه والتمثيلا
والكتب لولا أنها لك شهد ... ما فصلت آياتها تفصيلا
لولا حجاب دون علمك حاجز ... وجدوا إلى علم الغيوب سبيلا
لو لم تعرفنا بذات نفوسنا ... كانت لدينا عالمًا مجهولا

وإذا أحسنا الظن بالمعز - وهو في قوم أكثرهم على خلاف مذهبه يضمرون له ولدولته السوء - نقول: إن هذه مبالغة شاعر كان الأولى بالملك الفاطمي ألا يقره عليها؛ لأن إشاعتها مما يضر بسياسته، وإذا أسأنا الظن نقول: إنه أوعز بعمل هذه الأبيات، أو كان على الأقل لا يرضيه غير هذا اللسان، وهذا الإغراق في مدحه، والمعز هو الذي صحت عزيمته على فتح مصر بعد أن غزتها جيوش دولته غير مرة، وكان فتحها على يد مولاه القائد جوهر الصقلي الذي قطع خطبة بني العباس عن منابر الديار المصرية، ونزع اسمهم من السكة، وعوض عن ذلك باسم مولاه، وأزال الشعار الأسود، وألبس الخطباء الثياب البيض، وأمر بالزيادة عقيب الخطبة «اللهم صل على محمد المصطفى، وعلى علي المرتضى، وعلى فاطمة البتول، وعلى الحسن والحسين سبطي الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، وصل على الأئمة الطاهرين آباء المؤمنين.» وأذن بحي على خير العمل، صيغة الأذان الشيعي، ولما دخل المعز إلى مصر أمر بأن ينقش على الجدران في مصر القديمة «خير الناس بعد رسول الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.»[2]

قيل: إن الجيش الفاطمي لما دخل مصر كان مائة ألف، وقيل مائة وأربعين ألف مقاتل، معه ألف وخمسمائة جمل تحمل الذهب فقط، ذكروا أنه كان ثلاثة وعشرين

(١) في ديوانه بدل «مبشر أمة» نبيا مرسلا.

(٢) اتعاظ الحنفا للمقريزي.

ألف ألف دينار، وهو مبلغ عظيم يدل على اشتطاط الفاطميين في سلب من حكموهم من الأفارقة مدة ليفتحوا بما جبوا مصر ويمتدوا منها إلى الحرمين، ثم يضعون أيديهم على الملك العباسي، واستكثر الفاطميون من العساكر بمصر فكانوا بين كتامة وبربر ومغاربة وروم وصقالبة عددًا عظيمًا، قلّ لدولة أن جمعت مثله و«تمتاز الدولة العبيدية على من تقدمها في الأمر بكونها تأسست بدعوة الدين، والقائمين بنصرتها هم البربر من قبائل إفريقية.» وأقبل العبيديون في آخر أمرهم على شراء المماليك لاتخاذهم عبيدًا وحراسًا وبطانة، وأصبح جيشهم مؤلفًا من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأرمن وغيرهم، وكثر النصارى واليهود في خدمة الفاطميين على صورة مستغربة، ثم اضطهد النصارى على عهد الحاكم بأمر الله وخربت كنائسهم، ثم أعيدت إلى ما كانت، وأبقى الفاطميون أهل السنة في أعمالهم في البلاد المصرية والشامية والحجازية، ثم راحوا يستعيضون عنهم، ولا سيما عن كبرائهم، بأناس من أهل عصبيتهم الإسماعيلية، فضجت البلاد من مظالمهم، ومن فرضهم مذهبهم على أهل السنة فرضًا، ومن العمال من تظاهروا بالتشيع لتسلم لهم مناصبهم، ومنهم من أبوا فنحوا عن أعمالهم.

مهد الفاطميون لخلافتهم بالبذل الكثير للشعراء وأرباب الدعاية، وأكثروا من الألقاب الغريبة، يعطونها لمن يرجون الخير منه لسلطانهم، وكان الوزراء في بعض أدوار هذه الدولة[١] يلقبون كألقاب الخلفاء فيهم، وكان ابن مماتي في الأدوار الأخيرة كالمستولي[٢] على الديار المصرية ليس على يده يد، والمسمون بالخلافة من الفواطم محجوبون ليس لهم غير السكة والخطبة، ومن أظهر الظواهر السياسية في مؤخرات أيام الفاطميين أنهم كانوا يواترون نقل العمال والولاة والوزراء، مخافة أن يتأصل شأنهم في البلاد، وكانوا إذا جاء فيهم مثل المعز على جانب من الثقافة العالية لا تأخذه رحمة بمن يلاحظ أنهم مخالفوه في رأيه، فقد حرق كثيرا من أعيان مصر وأدبائها بالنار[٣] - إذا جاء فيهم مثل هذا فقد كان فيهم أضعف الضعاف الفاسدين.

---

(١) تاريخ مصر لابن إياس.

(٢) معجم البلدان لياقوت.

(٣) تاريخ جوهر الصقلي لعلي إبراهيم حسن.

ولقد بالغ بعضهم في عمل الفاطميين، وتابعهم من يأخذون الأمور على ظواهرها، ولو أنصفوا التاريخ لما تحرجوا من التصريح بأن ظلم الفاطميين في شمالي إفريقية أخرجها من أيديهم على أقل سبب، واشتداد عمالهم في إيذاء الناس في صقلية منع من امتداد سلطان المسلمين في جنوبي أوروبا، حتى قال أحد المفكرين في هذا العصر:[1] إنه لم يجن أحد على الإسلام ما جناه هؤلاء العبيديون الفاطميون.

ومما ذكر من مساويهم أنه في عهد أبي عبيد المهدي نصب على ولاية أوروبا؛ أي صقلية، خليل بن إسحاق الطاغية، فقضى في الحكم أربعة أعوام، ارتكب فيها من الجور والفساد ما لم يسمع بمثله، ومن ظلمه أخذ المسلمون يفرون أفواجا إلى البلاد النصرانية ويتنصرون، ولما عاد سنة ٣٢٩هـ إلى إفريقية كان يفتخر بمظالمه، وحضر مجلسا فيه وجوه الدولة العبيدية في قصر الإمارة، فقال: إنه قتل في إمارته ألف ألف نسمة، فرد عليه أبو عبد الله المؤدب، وكان من عقلاء الرجال في الدولة الشيعية: «لك يا أبا العباس، في قتل نفس واحدة ما يكفيك.»

وخُطب للفاطميين في الحرمين (٣٦٢هـ)، وفي سنة ٣٩٦ خطب بالحرمين للحاكم بأمر الله، وأمر الناس عند ذكره بالقيام وأن يسجدوا له، وكان الرسم أن يلقى الناس الخليفة الفاطمي بتقبيل الأرض، عادة لهم أخذوها من الفرس والإسلام لا يقرها، وخطب أمير بني عقيل للحاكم الفاطمي بأعماله كلها، وهي الموصل والأنبار والمدائن والكوفة (٤٠١هـ) وغيرها، وكان ابتداء الخطبة بالموصل «الحمد لله الذي انجلت بنوره غمرات الغضب، وانهدمت بعظمته أركان النصب.» وخطب البساسيري (٤٥٠هـ) بجامع المنصور ببغداد للمستنصر بالله العلوي خليفة مصر، وأمر المؤذن فأذن بحي على خير العمل، ودامت الخطبة له سنة.

امتد ملك الفاطميين منذ قاموا بسجلماسة سنة ٢٩٦هـ إلى أن توفي العاضد سنة ٥٦٧هـ مائتين واثنتين وسبعين سنة، وظلت المنابر تخطب بأسماء خلفائهم في إفريقية إلى سنة ٤٣٥هـ، وفيها نبذت دعوتهم عقبى ثورة الإفريقيين على الشيعة في شمالي

---

(١) بحث لعبد العزيز الثعالبي في كتاب تاريخ غزوات العرب لأرسلان.

إفريقية، وخطب لبني العباس فيها منذ سنة ٤٣٩هـ، واعترف خليفة بغداد بالاستقلال للمعز الذي خلف دولة الفاطميين بإفريقية.

وفي أيام الفاطميين قتل الدوقس عظيم الروم على حصن فامية من بلاد الشام (٣٣٢هـ)، وقُتل من عسكره ألوف وأُسر منهم خلق كثير، وكان يعقوب بن كلس أحد كبار وزرائهم أوصى خليفته المعز عند وفاته بأن يسالم الروم ما سالموه، وأن يقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة، وألا يبقي على مفرج بن دغفل بن جراح إن عرضت له فيه فرصة.[١]

وكان المعز نصح لنائبه يوسف بن زيري لما أزمع الرحيل إلى الشرق، بعد أن فتحت مصر باسمه فقال: إن نسيت شيئًا مما أوصيتك به، فلا تنسَ ثلاثة أشياء: لا ترفع الجباية عن أهل البادية، ولا ترفع السيف عن البربر، ولا تول أحدًا من أهل بيتك، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك، واستوص بالحضر خيرًا.

وكانت أبدًا سياسة الفاطميين مع غير الدول الإسلامية ليّنة، ويقال: إن من رجالهم المتأخرين من فاوضوا الصليبيين ليسلموا لهم ملكهم الذي كان في بعض الأدوار بأيدي النساء والمتغلبين من الرؤساء، وكان يؤتى ببعضهم وهم أطفال يجلسون على سرير الملك، وفي سيرة بعضهم من القبح ما لو قُسم على عدة ملوك لكان فظيعا، وإن مجد فيهم عمارة اليمني بشعره؛ لكثرة ما أغدقوا[٢] عليه من الأموال والعطايا. قال ابن ظافر جامع أخبار الدولة العلوية بإفريقية ومصر والشام: إن هذه الدولة عظم خطب الاختلاف في أحوال أربابها، وقويت الشناعة بإبطال ما ادعته من انتمائها إلى العترة النبوية. قال وهم أصل القرامطة الذين كان هلاك الدين على أيديهم، وظهر خروجهم على أهل ملة الإسلام وتعديهم. كلام فيه حق وغيره.

لم تخل الأندلس وشمالي إفريقية أو الغرب الأقصى والأوسط والأدنى، ومصر واليمن وما إليهما، من ثائر على الخلافة العباسية أو من أمير سموه خليفة، أو من خلفاء

---

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان.

(٢) النكت العصرية لعمارة اليمني.

لهم بالفعل، كانوا على جانب من القوة واستجماع أدوات الملك أمثال الأمويين في الأندلس، والفاطميين في إفريقية، ثم في مصر، وأمثال رجال دول المرابطين والموحدين والأدارسة وبني مرين والحفصيين، وجاء في بعض العصور عدة خلفاء في الأرض، ومنها خلافة سنية، وأخرى شيعية، وثالثة خارجية، ورابعة زيدية، والقوة في مجموعها كانت للخوالف من أهل السنة.

كانت دول العرب الأولى إلى أواسط المائة الثامنة على صورتها الاستبدادية تجمع شمل الأمة في الجملة، والخير يأتيها متقطعا على أيدي الملوك العادلين، وإن لم تكن صفات العدل والحزم والعلم كل حين على مقياس واحد في كل فرد تولى الخلافة أو الملك، والنوابغ قليل عددهم في كل صناعة، فكيف بأصعب الصناعات صناعة الملك، وكان الصالح في القرون الأولى أكثر من الطالح في الملوك والزعماء، وفي القرن الرابع كثر عدد من لا يصلح للملك ولا لإدارة البلاد، وقوي الدخلاء فاستأثروا بالحكم، وبقي القول الفصل لهم في الحياة العامة، ولا حول ولا طول للخلفاء من العرب.

هذا، وعمر الخليفة أو الملك قصير، وندر أن يعمل بسيرته من يخلفه، حتى ابنه الذي رباه وأورثه ملكه، وقلما يكمل الخلف ما بدأ به السلف من عمل، أو جرى عليه من سياسة وتدبير، وفي النادر أن يحافظ الثاني على أوضاع الأول إلا فيما لا غنية عنه، وربما نفع من طالت أيامهم من الملوك على استبداد فيهم؛ لاستقرار الأمر في حياتهم، أكثر من ملوك استوفوا شروط الحكم، وما امتد أجل أحكامهم غير أعوام قليلة. لو علت سن عمر بن عبد العزيز لدخلت خلافة الأمويين، بل الإسلام والمسلمون، في طور جديد من كل وجه، ولو طال عمر المأمون لم يعلم أحد ما كان يكون من حكمته وحنكته في دولة بني العباس، وما أعاد القادر بالله (٤٢٢هـ) جدة الخلافة العباسية وجدد ناموسها، وكان قد طمع فيها الديلم والترك، إلا لأن خلافته أربت على إحدى وأربعين سنة، وما أصبح الخليفة الناصر العباسي مرهوب الجانب في الهند[1] ومصر والشام والعراق، وخطب له ببلاد الأندلس وبلاد الصين، ودانت له السلاطين، إلا لأنه طالت

(١) مختصر تاريخ الخلفاء لابن الساعي.

أيامه سبعًا وأربعين سنة ٦٢٢ه، وهكذا يقال في الناصر الأموي الذي كانت خلافته في الأندلس خمسين سنة ٣٠٠–٣٥٠ه، وقل مثل هذا في المستنصر العبيدي من الفاطميين، وسنجر بن ملكشاه من السلجوقيين، وقلاوون وابنه محمد من المماليك. قد ينطوي الخليفة أو الملك الذي تدوم خلافته على عيوب تحتمل في جانب الاستقرار الذي تنتفع به الأمة، ومن النادر أن تطول أيام الملك ولا يختلف نظر الناس في الحكم عليه، وتبدو لهم مقاتله وتظهر عيوبه، وإذا كان من نسل عظماء موقرين في الصدور، تنشأ له هيبة فيضم شمل الجماعة، كما كان من الناصر العباسي الذي دعوه أسد بني العباس[1] لإحيائه الخلافة، وكانت قد ماتت بموت المعتصم، ثم ماتت بموته.

ذكروا أن العباسيين الأولين صرفوا الملك في وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا، حتى جاء بنو الرشيد فكان منهم الصالح والطالح، ثم أفضى الأمر إلى بنيهم فأعطوا الملك حقه، وانغمسوا في الدنيا وباطلها، ونبذوا الدين وراء ظهورهم، فتأذن الله بحربهم، وانتزع الأمر من أيدي العرب جملة وأمكن سواهم منهم، وهذا الرأي لا يصح على إطلاقه في كل الدول التي قامت ثم انقرضت.

تم الملك لبني العباس بجيش خراسان الفارسي، واضمحلت خلافتهم بالجيش التركي، كان الجند الفارسي قوة الخلافة العباسية لأول أمرهم، ومن العنصر التركي بعد ذلك ضعفهم. وفي القرن الرابع كان الجيش العباسي مؤلفًا من المماليك[2] الناصرية والبغائية والمسرورية والبكجورية واليانسية والمفلحية والأزكوتكيينة والكيغلغية والكنداجية، نسبة لقواد لهم ووزراء من الأعاجم، كانت لهم القوة في الدولة العباسية، فأصبحت الخلافة بتدخل الفرس أولا وتدخل الترك وغيرهم آخرا، ألعوبة في أيدي كل من تتم له القوة والغلبة على غيره من الأمراء والخوارج، ولم يكن إلا قليل حتى أصبح سلطان الخلافة الفعلي لا يتعدى بغداد وما جاورها، بل أمسوا وليس لهم حتى في بغداد ولا في قصورهم وشئونهم الخاصة شيء من الاستقلال، يود كل عنصر من

(١) دول الإسلام للذهبي.

(٢) تاريخ الوزراء للصابي.

عناصر الجيش أن يستأثر بالسلطة دون منافسه من الأجناس الأخرى، وربما لم يكن جميع الترك والفرس ممن تمثلوا الإسلام ظاهرا وباطنا، فقد وقعت فتنة بين الأتراك والهاشميين في سنة ٣٨١ فرفع الهاشميون المصاحف على الرماح، فرفع الأتراك الصلبان على الرماح.

فسدت العصبية العربية في القرن الخامس فسادًا ظاهرًا، وفني الجنس العربي في الأجناس الغريبة الأخرى، حتى لا يكاد العربي يرى في المقامات العالية، وأضعف بنو بوية الديلم، وبنو سلجوق الترك، عصبية الدولة العباسية العربية الفارسية، وانقرضت الدولة الأموية العربية من الأندلس، ولم يبق غير أقيال من العرب في المغرب بعد ذهاب الفاطميين من شمالي إفريقية ونزولهم مصر، وأخذ الصليبيون في العشر الأخير من هذا القرن يغزون بلاد المسلمين، فكان هذا العصر عصر تراجع السياسة العربية في كل مكان. وبمقتل العربي مسلم بن قريش صاحب الموصل (سنة ٤٧٨هـ) على يد سليمان بن قتلمش التركي - وكانت لمسلم طاعة حلب ورياستها شورى في مشيختها - انقرض الحكم العربي من الشام، أول قطر استصفاه العرب الفاتحون.

ثم دخلت البلاد في دور سياسي آخر، وأصبح الناس يعاونون كل متغلب على الملك، إذا أخلص النية في قتال الصليبيين، فحكم البلاد التركي والكردي والشركسي، وما عاد يخطر في البال إرجاع ملك العرب، فنسيت معاني القومية العربية، وماتت أو كادت روح العصبية المعروفة للقدماء، ولم يعد الملوك يعتمدون على قيس ويمن أو على إحداهما في قهر أعدائهم وتأييد سلطانهم، وأصبحت الجيوش المقاتلة والقواد والملوك من العناصر مختلفة لا تجمعها إلا كلمة الإسلام.

قرض صلاح الدين الكردي باسم نور الدين التركي دولة الفاطميين العربية في مصر فحكمها نور الدين باسم الإسلام، وحكمها بعده صلاح الدين وآله باسم الإسلام، وقامت بعد في مصر والشام دولة المماليك البحرية ودامت ١٣٠ سنة، ودولة المماليك البرجية وطال عمرها ١٣٥ سنة، وكلتاهما حكم باسم الإسلام لا باسم عناصرهما المنوعة، وجاء من هذه الدول عظماء من الرجال كنور الدين وصلاح الدين، ولم يطل عمر دولتيهما كثيرا على ما كان فيهما من الخير العظيم؛ وذلك لأن ولاية العهد لم تكن

مقررة على قاعدة ثابتة، فنور الدين مثلًا خلف ولدا صغيرًا ارتضى به خواص أبيه ملكًا، ولكن من الصعب أن يدبر طفل أمر البلاد في أحرج حالاتها السياسية، فأتى صلاح الدين نائب نور الدين في مصر وتولى الأمر في الشام بحكم الطبيعة، ولما هلك تفرق ملكه في أولاده، فاختلفوا واشتد خلافهم؛ لأنه لم يعهد إلى الكفؤ منهم بولاية العهد، ولئن كان فيهم رجال على جانب من الكفاءة، فإن اختلافهم فتح السبيل لعمهم العادل لتولي الملك.

لما مات العزيز بن صلاح الدين ملك مصر خلف ابنًا عمره تسع سنين وأوصى له أبوه بالملك بعده، وسموه الملك المنصور، وتقرر أن يجعل له من يدبر أمره فجعلوا عمه الملك العادل أتابكه إلى أن يتأهل[1] للاستقلال بأمور المملكة، فقال الملك العادل: إنه قبيح بي أن أكون «أتابك» صبي مع الشيخوخة والتقدم، والملك ليس هو بالإرث وإنما هو لمن غلب، وإنه كان يجب أن أكون بعد أخي الملك الناصر صلاح الدين، غير أني تركت ذلك إكرامًا لأخي، ورعاية لحقه. قال: فلما كان من الاختلاف ما قد علمتم خفت أن يخرج الملك عن يدي ويد أولاد أخي فسُسْتُ الأمر إلى آخره، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامي فيه، ونهوضي بأعبائه، فلما ملكت هذه البلاد، وطنت نفسي على أتابكية هذا الصبي حتى يبلغ أشده، فرأيت العصبيات باقية، والفتن غير زائلة، فلم آمن أن يطرأ على ما طرأ على الملك الأفضل، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبوا إقامة إنسان آخر، وما يعلم ما يكون عاقبة ذلك، والرأي أن يمضي هذا الصبي إلى الكتاب، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه، فإذا تأهل وبلغ أشده، نظرت في أمره وقمت بمصالحه، فوافقوه على رأيه وحلفوا له، وخلعوا المنصور الطفل وخطبوا للعادل.

كان المعقول ما تم من بيعة العادل، مستشار أخيه صلاح الدين ومؤتمنه، لبعد غوره في سياسة الدولة، أما هو فقد قسم مملكته في أربعة من أولاده، ووقعت مصر للكامل فتولاها نائبًا وملكًا أربعين سنة، وجرى على سنة أبيه وعمه في جهاد الأعداء وأبان عن كفاءة ظاهرة، وكان يخطب له بمكة (مالك مكة وعبيدها، واليمن وزبيدها، ومصر

---

(١) السلوك للمقريزي.

وصعيدها، والشام وصناديدها، والجزيرة ووليدها، سلطان القبلتين، ورب العلامتين، خادم الحرمين الشريفين، الملك الكامل أبو المعالي ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين)، وكان أولاد[١] العادل كالنفس الواحدة باتفاقهم. قال ابن الأثير فيهم «فلا جرم زاد ملكهم، ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوهم، ولعمري إنهم نعم الملوك، فيهم الحلم والجهاد والذب عن الإسلام.»

وكان ملوك دولتي المماليك أشبه برؤساء عصابات متغلبة، وقد جاء منهم من كانوا يحسنون السياسة، ومنهم من حملوا على رقاب الناس الخصيان والنسوان والصبيان، «ولم[٢] يكن نظام الوراثة مألوفًا عند المماليك؛ فقد كانوا يعتقدون أنه لا فضل لأحد على الآخر إلا بالمهارة الحربية؛ وكثرة الأتباع والحذق في تدبير المؤامرات.» وما كانت مع هذا دولة المماليك أقل غناء من كثير من دول الأحرار وأدعياء الشرف.

ولم يُسْمع بعد عصر المماليك بظهور قائم من العرب، حتى قام فخر الدين المعني الثاني في القرن الحادي عشر، فاستولى على لبنان وأكثر الساحل الشامي، يرضي العثمانيين بما أمكن من إتاوة، ويعطي السلطان طاعته، فقتلته الدولة، وقام في القرن التالي في جزيرة العرب عبد الله بن سعود، فاستولى على نجد والحرمين، ثم أخذه العثمانيون أيضًا وقتلوه (١٢٣٣–١٨١٨م) ومزقوا ملكه، وما سمع بعد ذلك صوت لعربي تحدثه نفسه بالحكم في العراق والشام والجزيرة ومصر وغيرها، وصفت كلها للترك العثمانيين بدون منازع.

---

(١) تاريخ الكامل لابن الأثير.

(٢) تاريخ العصور الوسطى لحسن إبراهيم حسن وأحمد صادق الطنطاوي.